المرأة بين الأمس واليوم

تمهيد

إن المتفرنجات عندنا يعتبرون أن المرأة كانت في مقتبل هذا القرن وما قبله كالخادمة أو الجارية لا رأى لها ولا إرادة، كانت في نظرهن ضعيفة ذليلة مغلوبة على أمرها ليس لها إلا أن تطيع فقط.

ومن ثم فالمتفرنجات الآن ينظرن إلى الأمهات والجدات نظرة ملؤها الشفقة والسخرية، ويرفضن كل الرفض منهج السابقات في الطاعة للزوج " سي السيد بتاع زمان "، لأن هذه الطاعة في منطق المتفرنجات استكانة وخنوعا و ذلة.

فهذه واحدة منهن تقول: " إنى أنصح كل النساء... أن يرفضن صورة المرأة الرقيقة الناعمة المطيعة الساذجة الدمية التي لا تفعل شيئاً غير إرضاء " سي السيد "، وإمتاعه وتربية أطفاله، بل الأفضل من ذلك أن تكرس جهدها لتذليل الصعاب وحل المشكلات، التي تعترض مشاركة المرأة في صياغة الحياة في أكثر صورها تعقيداً [1].

وهكذا غدت الطاعة في نظر المرأة المتفرنجة الآن نوعا من السذاجة، وليست الزوجة المطيعة في مفهومها إلا دمية يحركها الرجل كيفما شاء

وأعجب العجب أن يكون تربية الأولاد أمراً تافهاً، والأهم منه بكثير عندها " أن تكرس كل جهدها لتذليل الصعاب وحل المشكلات التي تعترض مشاركة المرأة في صياغة الحياة وأكثر صورها تعقيداً "، حتى ولو تشرد أولادها وأصبح بيتها قطعة من الجحيم، ونسيت

(1) جريدة الأهرام بتاريخ 1986/5/9 ص12.

أنها هي نفسها لن تنجو حينئذ من هذا الجحيم الذي أوقدته، وأن بيتها سيهوى أول ما يهوى على رأسها بينما هي مستغرقة في فلسفتها أو بالأحرى في هوسها لصياغة الحياة! تصوروا!

ولكن ما بالنا نمعن في عجبنا؟ إننا لسنا أمام نوعيات عادية من النساء؟ إننا أمام مناضلات، ومن الطبيعي أن يقتضي النضال بعض التضحيات، إذن فلا بأس أن يتشرد أولاد هذه المناضلة وأن يخرب بيتها وتغدو حياتها مرا وعلقما في سبيل الهدف الأكبر ألا وهو المشاركة في حل مشكلات العالم والمساهمة في صياغة الحياة؟

ولكن هل كانت المرأة قديماً على هذا النحو من المهانة فعلا كما تزعم المتفرنجات؟ وهل المرأة المتحررة الآن أكثر سعادة وراحة بال من الأمهات والجدات في الماضي ؟

هذا ما سنحاول بيانه إن شاء الله تعالى:

1- المرأة في الماضي:

لا ننكر أن المرأة في الماضي كانت تعتبر أكثر طاعة لزوجها من المرأة المعاصرة، لأنها تعتبر ذلك من تعاليم دينها التي تثاب بفعلها وتأثم بتركها، فتفعلها وهي قريرة العين راضية النفس هادئة البال.

وكان الزوج بالنسبة لها هو الأب والأم وبهجة المنى وابتسامة الأمل.

كان هو النسمة التي تستنشقها، والنور الذي يضيء جنبات نفسها، والعكاز الذي تتوكأ عليه في رحلة الحياة.

كان هو حاضرها ومستقبلها والحصن الذي تأوي إليه وتلوذ به من غدر الزمان.

كان هو طفلها المدلل الذي تتفانى في إسعاده وتستمد من سروره

فرحتها.

كانت هي جاريته وكان هو عبدها.

وقد عبرت المرأة العربية البسيطة عن هذا المعنى أصدق تعبير، وذلك إذ تقول أسماء بنت خارجة الفزارية وهى تزف ابنتها إلي عرسها: " يا بنية إنك خرجت من العش الذي فيه درجت فصرت إلى فراش لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه فكوني له أرضاً يكن لك سماءً، وكوني له مهاداً يكن لك عماداً، وكوني له أمة يكن لك عبداً، لا تلحفي به فيقلاك - أى لا تلحي عليه فيكرهك - ولا تباعدي عنه فينساك، إن دنا منك فأدنى منه، وإن نأى عنك فأبعدي عنه، واحفظي أنفه وسمعه وعينه، فلا يشمن منك إلا طيباً، ولا يسمع إلا حسنا، ولا ينظر إلا جميلاً ".

انظروا إلى هذه العبارة التي تقول فيها: " كوني له أمةً يكن لك عبداً إنها في غاية الدقة والإيجاز ولكنها تتضمن عمقا وفكرا وفلسفة لا يرقى إليها مطلقا فكر أى واحدة من أولئكن المتفرنجات، فلو أن المناضلات عندنا قد اتخذن هذه العبارة شعارا لهن - بدلا من شعار النضال - وعملن على تطبيقه في ربوع المجتمع، لانتهت أكثر المشاكل الزوجية عندنا، ولكن هل يمكنهن استبدال شعار النضال بهذا الشعار؟ بالتأكيد لا يمكنهن ذلك لأن شعار النضال فيه معنى الثورية والظهور بالشجاعة والحماس، وفيه معنى التجديد والتغيير حتى ولو كان التغيير إلى التعاسة والدخول إليها من أوسع أبوابها.

كانت المرأة بالأمس صابرة راضية قانعة مناضلة مع زوجها لا مناضلة ضده كما هو الآن.

كان أقل شيء يكيفها، حتى ولو كسرة خبز وجرعة ماء، لأن الإيمان يعمر قلبها.

كانت تشعر وكأنها في غاية الثراء حتى ولو كانت تفترش

الأرض وتلتحف السماء.

كانت تعرف مغبة الحرام، وأنه يقذف بصاحبه في النار، فقد تشربت مبادئ الإسلام منذ نعومة أظفارها ووعت جيداً قول الرسول ﷺ:"**كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به**-، من كانت توصى زوجها إذا خرج لعمله: " اتق الله ولا تكتسب من حرام فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار ".

كانت توقن أنها لو أطعمت أولادها من حلال فسيبارك الله فيهم، ولكن لو أطعمتهم من حرام فسينزع البركة منهم، فخرجت أجيالا يعرفون معنى الأمانة والفضيلة والمروءة والشرف ويمقتون الخسة والشراهة والدناءة والجشع لا كما هو الآن عند بعض الفئات حيث لم يعد لكلمة الحرام أى مدلول عندهم بعد أن أهملوها ورفعوها من قاموس حياتهم، ووضعوها في متحف التاريخ حتى لا تكون حجر عثرة تعرقل غول جشعهم فأطلقوا العنان لرذائلهم واندفعوا وراءها كالكلاب الضالة ينهشون المال الحرام ويعبثون في الأرض فسادا.

كان الطابع العام للحياة الزوجية قديماً هو التعاطف والتراحم والمحبة والوئام، لأن الطرفين كانا يلتزمان تعاليم الشريعة لا يحيدان عنها.

كانت الحياة الزوجية تمضي إلى غايتها برفق بالغ كزورق يتهادى على صفحة ماء، وسنان تداعب شراعه نسمات ناعمات ملساء، فلم يكن يهب عليها حينذاك إعصار المناضلات، وإلا لعصف الإعصار بالزورق ومن فيه وقذف به إلى القاع السحيق.

لم تكن تشعر مطلقاً بأي ذلة أو هوان كما يزعم المناضلات، وكيف تشعر بشيء من ذلك، وهي توقن أنها حين تطيع زوجها تنال أجزل الثواب من الله.

لم يكن تشعر مطلقاً بأي ذلة أو هوان كما يزعم المناضلات، لأن

زوجها حينذاك كان أكثر طاعة لله ويعي جيداً قول الرسول ﷺ:"**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**-.

وقوله عليه السلام:"**استوصوا بالنساء خيراً**- ويعرف أن الإسلام يأمره بالصبر عليها والإغضاء عن بعض عيوبها إذ يقول عليه السلام:"**لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها آخر**- ويعرف أنها أمانة في عنقه وأن الله سيحاسبه عليها لو استبد بها أو ظلمها إذ يقول عليه السلام:"... **والرجل راع في أهل بيته وهو مسئول عن رعيته**- فكانت تشعر بالأمان في كنفه لأن الشأن في المؤمن ألا يكون مستبداً ولا طاغياً، وإنما يكون شفوقاً ودوداً.

كانت تعرف بذكائها الفطري كيف تزيل كل أثر للجفوة بينها وبين زوجها، وكيف تتغلب على قوته بسلاح ضعفها، فكانت تستعمل هذا السلاح كلما لاحت بوادر أزمة في الأفق، فلا تلبث هذه الأزمة أن تنقشع ويخمد الشر في مهده، وتعود النفوس أكثر نقاء والحياة أكثر إشراقاً، لا كما هو الآن بالنسبة للزوجة المتفرنجة فقد غدت معملاً متنقلاً لتفريغ المشاكل، فتعمل من الحبة قبة، ومتعتها في النكد والتنكيد.

كانت المرأة بالأمس تقية نقية صوامة قوامة ورعة متبتلة كلها بركة في البيت تشيع السكينة في جنباته وتنشر عطر الإيمان في أرجائه.

كانت هينة لينة رقيقة وديعة مهذبة كما رباها الإسلام " تتحط على الجرح يبرد " لا شرسة مسترجلة وقحة، لسانها أطول منها، لا يستقر لسانها لحظة في فمها، ولا يفرز غير سموم الكلام كما هو الآن بالنسبة لبعض المتفرنجات.

كانت أكثر غنى من مليونيرات هذا الزمان - وإن كانت خالية الوفاض من المال - لأنها تملك ما هو أثمن من المال، كانت تملك

قلب زوجها وحبه الصادق غير المنمق بكلمات النفاق، وإنما تعبر عنه قسمات وجهه وبريق عينيه ونبرات صوته ولهفته غير المفتعلة عليه إذا ألم بها أى مكروه وتوفير كل أسباب السعادة لها، فكانت تشعر وكأنها ملكة غير متوجة في مملكة بيتها، لا كما هو الآن حيث يعيش كثير من الرجال مع زوجاتهم بقوة القانون، يتملقها الرجل بلسانه ويتحسر في أعماقه لأنه كتب عليه أن يوجد في هذا الزمن الأغبر الذي غدا نساؤه يتحكمن في رجاله، يتحسر في أعماقه لأن القدر فرض عليه أن يعيش تحت سقف واحد مع حية متفرنجة رقطاء ناعمة الملمس، ولكنها سيئة المخبر تقذف بالشرر، ولا يعرف قلبها سوى الضغينة والحقد تجاه زوجها فقط، وأما تجاه الآخرين فتكاد تسيل رقة وعذوبة، يتحسر في أعماقه لأنه قد نكب بخضراء الدمن التي حذر منها الرسول ﷺ حين قال:**"إياكم وخضراء الدمن"**، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال:**"المرأة الحسناء في المنبت السوء"**- ألا ما أكثر خضروات الدمن في هذا الزمان.

كان بيت الزوجية قديماً لا يعدو أن يكون في الكثير الغالب سوى كوخ هزيل لا تزيد مواد بنائه عن الطين والقش، وبعض فروع الأغصان، وهو من الانخفاض بحيث يعتبر الداخل إليه والخارج منه أقرب إلى هيئة الراكع منه إلى هيئة الواقف، حتى أن الزنزانة الآن بالنسبة له تعتبر قصراً شامخاً منيفاً، وأرضه عارية إلا من الحصى وبعض خرق بالية وأوان بدائية.

ومع ذلك كله فقد شهدت هذه الأكواخ سعادة لم تحلم بها القصور الآن بل ولا ناطحات السحاب، لأن كتاب الله كان يتلى فيها آناء الليل وأطراف النهار، فتضفى آياته على الكوخ ومن فيه بهجة وبهاء وسكينة ورضا وراحة نفس وهدوء بال.

كيف لا وهم يجالسون الملائكة الذين يتنزلون عليهم من السماء

لسماع القرآن؟

كيف لا وقد وعد الله الذاكرين له أن يمن عليهم بأحسن نعمة في الوجود ألا وهي نعمة الاطمئنان التي تفوق كل ما في هذه الدنيا من مال، إذ يقول الله ﷻ: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [1].

وإذا اطمأن القلب بذكر الله وهدأت النفس بالإيمان تحول المكان الذي به المؤمن إلى روضة من رياض الجنة حتى وإن كان كوخاً متواضعاً بدائياً لا قصراً شامخاً فسيحاً ولا ناطحة سحاب.

ألا وإن هذا الاطمئنان الذي يحظى به المؤمن لا يستطيع مال الدنيا كلها أن يحقق مثقال ذرة منه لغير المؤمن، فالاطمئنان هو المرادف للسعادة، والسعادة هي منحة وهبة من الله تعالى، تنبثق من أعماق النفس لا من خارجها، وليس ثمة شيء في الدنيا يفجر طاقتها ويوقد مشكاتها في القلب سوى الإيمان، وإلى هذا المعنى يشير الرسول ﷺ بقوله:**"عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له-**

وإذا كان عباد المال الحرام ينظرون الآن إلى الاطمئنان القلبي الذي يتمتع به المؤمن نظرة استخفاف، لأنه لا يصرف من البنوك، فإنه يجاب عليهم بأن أكثر من يقدمون على الانتحار في العالم هم في غاية الثراء المادي ولو كانوا يشعرون بشيء من السعادة والاطمئنان النفسي ما أقدموا على الانتحار أبدا، ولكنهم كانوا يشعرون بفقر معنوي مدقع رغم أن الدنيا كلها رهن بنانهم، وهذا الفقر المعنوي سببه انعدام الإيمان عندهم، كأن الله تعالى يقول لهم: هذا المال الذي تتكالبون

(1) الآية 28 من سورة الرعد.

عليه وتظنونه المصدر الأساسي للسعادة قد أعطيته لكم بغير حساب ولكنه لم يحقق لكم شيئاً منها لإعراضكم عن الطاعة يقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[1]، فالله تعالى يغرس الكآبة في نفوس غير المؤمنين، فتجدهم رغم الثراء الفاحش أكثر الناس إصابة بما يسمى بأمراض العصر، تجدهم يعانون من التمزق النفسي والأمراض العصبية.

* * *

(1) الآية 124 من سورة طه.